﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥﴾ [يوسف: 94 - 95]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

بمجرَّد التَّحرُّكِ صوبَ الأبِ المكلومِ تحرَّكتِ مشاعرُ الصِّدقِ وأحاسيسُ الصّفاء

لمّا أمر يوسف عليه السلام إخوته بأن يذهبوا لإلقاء القميص على أبيهم، وأن يأتوا بأهلهم أجمعين، تحرَّكوا تجاه أبيهم عازمين على تنفيذِ الأمر اليوسفيّ، حينها بدأت مشاعر الأبوّة الصّادقة، وأحاسيس النُّبوّة بالتّحرّك تجاه الخير الآتي، فذكرت الآيةُ ما كان مِن يعقوب عليه السلام مِن ذِكْر ما يجده من ريح يوسف عليه السلام، وما كان من جوابِ مَنْ حوله من النّاس الّذين لا يفقهون حقيقةَ الأمر، ولا يُدركون ما يُدركه من واقع الحال، فالمناسبة بين الآيات هي بيانُ تحرُّك الإخوة بعد أمْرِ أخيهم، دون تريُّثٍ أو تأخُّر.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَصَلَتِ﴾: الفاءُ والصّادُ واللّامُ كَلِمَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ على تَمْييزِ الشَّيْءِ من الشَّيْءِ وإبانَتِهِ عَنْهُ. يُقالُ: فَصَلْتُ الشَّيْءَ فَصْلًا. والفَيْصَلُ: الحاكِمُ. والفَصيلُ: ولَدُ النّاقَةِ إذا افْتُصِلَ عَنْ أُمِّهِ. والمِفْصَلُ: اللِّسانُ، لِأَنَّ بِهِ تُفْصَلُ الأُمورُ وتُمَيَّزُ[1]، والمُراد في الآيةِ هو مفارقة العيرِ المكانَ الّذي كانوا فيه، فالانفصال هو الافتراق، والمِفْصَل هو مكان الافتراق[2].

2) ﴿ٱلۡعِيرُ﴾: العَيْنُ والياءُ والرّاءُ أَصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما على نُتوِّ الشَّيْءِ وارْتِفاعِهِ، والآخَرُ على مَجيءٍ وذَهابٍ[3]، وهذان

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فصل).
(2) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فصل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عير).

المعنيان حاضران في العير، والعيرُ: القوم الّذين معهم أحمال الميرَة، وذلك اسمٌ للرّجال والجِمال الحاملة للميرَة، وإن كان قد يُستعمل في كلٍّ واحدٍ مِن دون الآخر. والعَيْرُ يُقال للحمار الوحشيّ، وللنّاشز على ظهر القدم، ولإنسان العين[1]، والمقصودُ في الآيةِ: القافلة بمجموعِها وما فيها من الميرَة والحمولةِ والرِّجال.

3) ﴿لَأَجِدُ﴾: الواوُ والجيمُ والدّالُ، يَدُلُّ على أصْلٍ واحِدٍ، وهوَ الشَّيُّ يُلْفيهِ. ووَجَدْتُ الضّالَّةَ وِجْدانًا[2]، وهو يأتي على أضرُبٍ من المعاني، ومعناه في الآيةِ: الوِجدان بعد الفقْد، والتَّعبير بقوله: ﴿لَأَجِدُ﴾ للتَّحقيق بحصول البشارة بحياة يوسف ﷺ من الرّيح الَّتي أُرسلت إليه من الله تعالى إكرامًا وتحنُّنًا.

4) ﴿تُفَنِّدُونِ﴾: الفاءُ والنّونُ والدّالُ أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على ثِقَلٍ وشِدَّةٍ، ويُقالُ بَعْضُهُ على بَعْضٍ. من ذَلِكَ الفِنْدُ: الشِّمْراخُ من الجَبَلِ، وقالَ قَوْمٌ: هوَ الجَبَلُ العَظيمُ، وبِهِ سُمّي الرَّجُلُ فِنْدًا. ومِمّا يُقاسُ عَلَيْهِ التَّفْنيدُ، وهوَ اللَّوْمُ، لِأَنَّهُ كَلامٌ يَثْقُلُ على سامِعِهِ ويَشْتَدُّ. والفَنَدُ: الهَرَمُ، وهوَ ذاكَ القياسُ، ولا يَكونُ هَرَمًا إلّا ومَعَهُ إنْكارُ عَقْل"[3].

فالتَّفْنيدُ: نسبة الإنسان إلى الفَنَدِ، وهو ضعف الرّأي. قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، قيل: أن تلوموني[4]، وقيل: الضّعف والهَرَم والكذب وذهاب العقل، وكل معاني الإفساد تدخل في التّفنيد، لأنّ أصل ذلك كله الفساد، والفساد في الجسم: الهَرَمُ وذهاب العقل والضّعف[5].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تُبيِّن الآية أن الإخوة تحرَّكوا تجاه أبيهم ﷺ لإلقاء القميص عليه، ليرتدَّ إليه بصرُه، وليأتوا بأهلهم للعيشِ في مجتمعِ مصر الجديد بالنّسبةِ إليهم، وحين وجد يعقوب ﷺ وهو في دياره ريحَ يوسف ﷺ، "والتَّحْقيقُ أنْ يُقالَ: إنَّهُ تعالى أوْصَلَ تِلْكَ الرّائِحَةَ إليه على سبيل إظهار المعجزات لا لأنَّ وُصولَ الرّائِحَةِ إلَيْهِ من هَذِهِ المَسافَةِ البَعيدَةِ أمْرٌ

(1) الرّاغب، المُفردات: (عير).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وجد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فند).
(4) الرّاغب، المُفردات: (فند).
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/52.

مُناقِضٌ لِلْعادَةِ؛ فَيَكونُ مُعْجِزَةً ولا بُدَّ من كَوْنِها مُعْجِزَةً لِأَحَدِهما، والأَقْرَبُ أَنَّهُا لِيَعْقوبَ ﷺ حينَ أَخْبَرَ عَنْهُ، ونَسَبوهُ في هَذا الكَلامِ إِلَى ما لا يَنْبَغي"[1].

عودة الحياة مع إطلالة الرّائحة الـزَّكـيَّـة لطهر الأنبياء وأنبياء الطهر

وما كان من جواب مَنْ حوله إلّا أن يخاطبوه خطابَ الإجحافِ، فما زالوا على صَلَفِهم بما ردّوا من قولهم مُقسمين: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ مع أنَّ الأوْلى كان النَّدم والاعتذار.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

علَّةُ وصلِ الجملةِ بالسّابق:

قميص البشارة يـغـادر أرض الكنانة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ عاطفةٌ، فقد عطفت خروج العير من عريش مصر قاصدةً أرض الكنعانيّين بعد أمر يوسف ﷺ إخوته بالذَّهاب بقميصه والإتيان بأهلهم أجمعين. ووصلت هذه الجملة بسابقتها لاختلاف الجملتيْن خبرًا وإنشاءً، فبينهما كمال انقطاع، مع وجود مانعٍ من الفصل بينهما، لكون الفصل مُخلًّا بالمعنى، فلو تمَّ الفصل لترتَّب على ذلك إخلالٌ بالمعنى، إذِ المُراد هنا ترتُّب البشارة بالقميص وحمل الأهل ومجيئهم إلى مصر بعد الأمر لهم بذلك.

براعةُ استعمال (لمّا) الحينيَّة:

الإخـبـارُ عـن دقائق تفاصيل الغيبِ لا يكون إلا مـن وحـي الحقِّ

وجود لوجود أو وجوب لوجوب، وهي تقتضي جملتيْن وُجدت ثانيتهما ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ عند وجود أولاهما ﴿فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾، فأفاد ورودها هنا لتحديد ظرف الخروج ووقته، إذ إن هذا الوقت هو وقت بدءِ شَمِّ الرّائحة، وليس فصلان العير دلالةً على قوّة المعجزة المؤيِّدة له ﷺ، فاستعملت ﴿وَلَمَّا﴾ لبيانِ ترتُّب الشَّمِّ على الفصلِ من أرض مصر، وهذا إخبارٌ غيبيٌّ عجيب، ولو لم يكنِ القرآن من

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/256.

عند الله تعالى لَما جاء على هذا النَّظم، إذِ الإخبار في هذه الآية عن دقائق تفاصيل الغيب، وهذا أمرٌ لا يخطر على قلبِ بشرٍ، فسبحان مُنزِّل القرآن.

دلالةُ استعمال مفردة ﴿فَصَلَتِ﴾:

الأراضي كأعضاء الجسد قطعٌ مختلفةٌ تلتقي بمفاصل على الأرضِ

الفصل إبانةُ أحد الشَّيئَيْن من الآخر حتَّى يكون بينهما فُرْجة، والمُرادُ بالفصلِ هنا القطْع بين البلديْن بحاجزٍ، فتجاوزوا مصر إلى بلدهم، ومعنى ﴿فَصَلَتِ﴾: قطعت مفاصلها، وفَصَل القوم من مكان كذا وانفصلوا: فارقوه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ﴾، والمُراد: أنَّ العير قد فارقت أرض مصر تمام المفارقة، وبدأ دخولها أرض فلسطين، والتَّعبير بها أبلغ من المفارقة لاحتمال القُرب في الأخيرة، فكأنَّ الفصلَ هو بين قطعتيْن، وما بينهما مفصلٌ، وهذا المفصل الّذي بلغه إخوة يوسف واتجهوا نحو أبيهم، هو مكان المفارقة من قطعةٍ لأخرى، وتحديده يكون عُرفيًّا.

بلاغةُ المجازِ المُرسَل:

رجوعٌ مختلفٌ عن سائرِ الأسفار ولياليِ الأسمار

جاء التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْعِيرُ﴾ باعتبارها الوسيلة الوحيدة يومئذٍ للانتقال في الصَّحراء، كما أنَّ التَّعبير بها مجازٌ مُرسلٌ لعلاقة المحلِّيَّة، فأطلق المحل وأراد الحالَّ وهم أهلها، إذ إنَّ العير بمعناها المعلوم لا تُراد؛ وإنَّما يُراد أهلها الَّذين يحملون إلى أبيهم بشارة حياة ولده يوسف عليه السلام، والمُراد بالعير: العير الَّتي قدموا عليها من أرض فلسطين إلى مصر لطلب الميرَة من عزيزها، والتَّعبير المجازيُّ يُراد منه المبالغةُ بقصدِ شمولِ إخوةِ يوسف عليه السلام جميعًا؛ أيْ إنَّهم فصلوا بأجمعِهم للإتيانِ بأهلهم بما يحملون من متاعٍ ومالٍ وميرَة.

كما أنَّ التَّعبير بالعير لما فيه مِن معنى التّردُّد والظُّهور، فإنَّ هذه العير قد تردَّدت بين فلسطين ومصر، فكأنَّها إشارة إلى أنَّ هذا التَّردُّدَ قد آن له أن يهدأ بعد هذه المرّة.

دلالةُ جواب ﴿وَلَمَّا﴾:

بمجرَّدِ الفصل تحقَّق الوصلُ

فُصل فعل القول في جملة ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ عن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ للدّلالة على سرعةِ وجدانِ الرّيح، فبمجرَّد الفصلِ وقع الوصل؛ أيْ: بمجرَّد فصل العير تحقَّق وصلُ الرّيح، وهذا يدلُّ على أنَّ الأمر ضمن دائرة المعجزةِ، أو ضمن دائرة الشُّعور العالي الّذي لا يفقهه إلا الصِّدّيقون والنّبيِّون ممَّن أوتوا حظًا من الصَّفاء، وطاقةً من البهاء.

دلالةُ إضافةِ الأبِ إلى الضَّمير:

لفتُ الأذهانِ إلى قيمة الأُبوّة

إضافةُ الأبِ إلى الضّميرِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ للإيجاز والاختصار والتَّشريف، فلم يَقُلْ: قال يعقوب، أو الَّذي ربّاهم، إلى جانب ما في التَّعبير بالأب مضافًا إلى ضميرهم مِن لفت أذهانهم إلى هذه الأُبوّة الَّتي لم يُراعوها، ولم يرحموا شَيبتَها وحُزْنَها.

غرضُ التَّوكيد:

يحسُنُ التَّوكيدُ عند توقُّعِ الإنكار

قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ جاء فيه توكيداتٌ عِدَّة؛ فقد "أكَّدَ هَذا الخَبَر بـ (إنَّ) واللّام؛ لِأَنَّهُ مَظِنَّةُ الإنْكارِ، ولِذَلِكَ أعْقَبَهُ بـ ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾"[1]. وقوله هذا مُؤكِّدٌ لعلمه أنَّهم يُنكرون عليه قوله هذا، ولذا جابههم وصدَّهم عن المواجهة بالإنكار حين أخبرهم بقوله: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾؛ أيْ: لقلتُ غيرَ مُستحٍ ولا متوقِّف.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ الوجدان:

الإيماءُ إلى ضياعِ صاحبِ القميصِ ووجـدانـه بعد طولِ انقطاع

الوجدان في أصل اللّغة لما ضاع أو لِما يجري مجرى الضّائع في ألّا يُعرف موضعه، يُقال: نشدت الضّالةَ إذا طلبتها نشدانًا، فإذا وجدتُّها قلتُ: وجدتُّها وِجْدانًا، وهو يستعمل في وجود الضّالة[2]، فما عبَّر به نبي اللّه يعقوب ﷺ من لفظ الوجدان في قوله تعالى: ﴿إِنِّي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/48.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 92.

﴿لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ هو المناسب لضياع يوسف منه؛ فإنَّه ضاع منه فترةً من الزَّمنِ، ثمَّ ها هو يرجعُ إليه بمُقدِّماتِه، وهي ريحُ يوسف السّاكنةُ في القميصِ، فلمّا كانت بدايةُ الضَّياع بالقميصِ، وكان آخر العهد بشمِّ القميصِ، فحسُن حينئذٍ ردُّ الفرعِ إلى أصله؛ لتكون بداية النّهاية بشمِّ القميص كذلك، وهذا من بديع استعمال مفردة الوجدان في التَّصريحِ والإشارةِ.

سرُّ التَّعبير بالرّيح المُضافة إلى يوسف:

ريـحٌ ثـبـتـت في الأنفِ الزّكيّ منذ لـحـظـةِ الـفـراقِ إلـى لـحـظـةِ الوجدان

أُضيفت الرّيح إلى يوسف ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾، ووِجْدانُ يَعْقوبَ ريح يوسُف ﷺ إلْهامٌ خارِقٌ لِلْعادَةِ، جَعَلَهُ اللّه بِشارَةً لَهُ، إذْ ذَكَّرَهُ بِشَمِّهِ الرّيحَ الَّذي ضَمَّخَ بِهِ يوسُفَ ﷺ حينَ خُروجِهِ مَعَ إخْوَتِهِ، وهَذا من صِنْفِ الوَحْيِ بدونِ كَلامِ مَلَكٍ مُرْسَلٍ، والرّيحُ: الرّائِحَةُ، وهيَ ما يَعْبَقُ من طيبٍ تُدْرِكُهُ حاسَّةُ الشَّمِّ[1]، فهو يُذكِّرُهم بآخر العهدِ وهي ريح يوسف، فما زالت تلك الرّيح مُتشبّعةً في أنفِ يعقوب الزَّكي منذ لحظةِ الفراق إلى لحظةِ الوجدان، وما بينهما زمانٌ متلاشٍ إلّا بذكرِ اللّه تعالى، فالإضافة للتَّعريف؛ أيْ: ريح يوسف المعهودة المعروفة الّتي لا تغيبُ ولا تبتعد عن حاسَّةِ الشَّمِّ.

بلاغةُ استعمال ﴿لَوْلَآ﴾:

دلالاتُ الإيماءِ لما في النُّفوسِ من الإيحاء

مفهوم ﴿لَوْلَآ﴾ أنَّها حرف امتناعٍ لوجوبٍ أو لوجودٍ، ويلزم في خبرها الحذف، ويُستغنى بجوابها عن الخبر، والأكثر في جوابها المُثبت، وقد يُحذف للعِلْم به، كما تفيد التّحضيض فتختصّ بالمضارع، والتَّوبيخ والتَّنديم فتختّص بالماضي"[2]، والمعنى على ذلك: "و﴿لَوْلَآ﴾ أن تنسبوني إلى الفَنَدِ، وضعف العقل لصدّقتموني فيما قلتُ، أو لولا أن تنسبوني إلى ذلك لقلتُ لكم إنّي أشعر أنّ لقائي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/48.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/377 - 376.

بيوسف قد اقترب وقته وحان زمانه"[1]، وتدلُّ ﴿لَوۡلَآ﴾ على أنَّ معرفته بأهله ظاهرة عميقة، فهو يعلم جوابهم وما يُحيط به من ضعفِ الأدب وقلَّة الحياءِ، ومع ذلك لم يستطع أن يصبر على الإشارةِ إلى ما يجد، ولا هم صبروا عن السُّكوت عمّا يجول في نفوسِهم.

فائد فائدة استعمال ﴿أَن﴾ مع الفعل المضارع:

العاقلُ يتحاشى ما سيقعُ قياسًا على ما وقَعَ

دخول ﴿أَن﴾ على الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ يُفيد الاستقبال، و﴿أَن﴾ صالحةٌ للاستقبال، ولو دخلت على الماضي كان ماضيًا لفظًا مُستقبلًا معنًى، كما تُستعمل في مقام التَّوبيخ إنكارًا لحدوث الفعل من فاعله - كما هنا - أو كان المخاطب غيرَ جازم بما يجزم به المتكلِّم كما في اعتقاد يعقوب ﷺ حياة ولده، وأنَّه يشمُّ رائحته الآن، فلو قال: لولا تفنيدكم؛ أيْ: فيما مضى، فهو يريد ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ في المستقبل.

سرُّ استعمال لفظِ ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ دون مرادفاته:

لفظٌ يستوعب جميعَ المضمرات النَّفسيَّة والإيماءات المحكيَّة

"التَّفْنيدُ: النِّسْبَةُ لِلْفَنَدِ بِفَتْحَتَيْنِ، وهوَ اخْتِلالُ العقل من الخرف"[2]، وهم قد اعتقدوا فيه ﷺ ذهابَ عقله كما ذهب بصره فخاطبهم ﷺ بوصف نفسه نافيًا أن يكون قد ضعُف عقله بسبب المرض والتَّقدُّم في العمر وكثرة البكاء والحزن، فلفظ التَّفنيدِ يدلُّ في أصله على عمومِ الفسادِ، ويدخلُ فيه المرض والضَّعف والخَرَف وذهاب العقل وما إلى ذلك، والّذي يظهر أنَّ استعمال هذا اللَّفظِ يُراد منه جميع هذه المعاني، وفيه كشفٌ لواقعِ مَنْ حوله من أهله، فكلٌّ ينظر من زاويةٍ ليعقوب ﷺ، ويجتمعون في بؤرةِ سوءِ الأدبِ وقلَّة الحِشْمة، فكان التَّعبير على قلَّة استعماله مناسبًا للقومِ فيما يصدر عنهم.

(1) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 7/413.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/48.

لطيفةٌ في حذف ياء المُتكلِّم:

تعليمُ الأدبِ يعمُّ الأحوالَ كلَّها

حُذِفَتْ ياءُ المُتَكلِّم في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تَخْفيفًا بَعْدَ نونِ الوِقايَةِ وبَقيَتِ الكَسْرَةُ[1]، فلم يَقُلْ: تُفنّدوني تخفيفًا لفظيًّا، ومن وراء ذلك إشارةٌ لطيفةٌ، وهي عدم إيقاع فعل التَّفنيد عليه مباشرة، بل جعله مُطلَقًا مُرسَلًا، وهذا من لطيف خطابه، وتعليمهم الأدب.

بلاغةُ حذفِ جواب ﴿لَوْلَآ﴾:

الجهلُ والمكابرةُ يصدّانِ عن رؤية الحقِّ

حُذِف جوابُ ﴿لَوْلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾؛ لدلالة الكلام عليه، والمعنى: لولا أن تُفنِّدوني لتحقَّقتم ذلك أو لصدَّقتموني، وسرُّ حذفه أنَّه ما كان يطمعُ في تصديقهم له؛ لأنَّهم لا يمتلكون ما يمتلكه من تأييد الله تعالى له، وهو عليمٌ بأحوالِهم خبيرٌ بُقُدراتهم.

بلاغة إضمار الفاعل مع عدم تقدُّم ذِكْره:

المؤمنُ يأنسُ بالقلَّةِ المؤمنةِ ويستوحش من كثرة الضّالّين

قال يعقوب ﷺ لمَن كان جالسًا معه من أهله وأقاربه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾؛ أيْ: رائحته الَّتي تدلُّ عليه، وتُشير إلى قُرب لقائي به، فكان جوابُ المجالسين له: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾، ولَم يَسْبِقْ ذِكْرُهُم، وذلك لِظُهورِ المُرادِ مِنْهُم، فهم لَيْسوا أبْناءَهُ؛ لِأنَّهُم كانوا سائِرينَ في طَريقِهِم إلَيْهِ[2]، والحذف هنا لعدم الفائدة من ذكر المسند إليه صراحةً، أو لكونه معلومًا لدى السّامع؛ أيْ: قال الحاضرون آنذاك معه، ومعلوم أنَّ أولاده ذهبوا إلى مصر لطلب الميرَة، ومَن تأمَّل نَظْم القرآن يجد أنَّه لا يذكر إلّا ما يُحتاج إليه، ومَن تأمَّل ما وراء النَّظم يجد أنَّهم لا يستحقّون أن يُذكروا في مواضع الشَّرف؛ لجرأتِهم على نبي الله يعقوب ﷺ برميه بالضّلال.

بلاغة القَسَم بحرف التّاء:

إذا اجتمعَ القسَمُ مع التَّعجُّبِ زاد الإنكارُ ورسخَ

تأتي التّاء "مُحرَّكة في أوائِل الأسْماء ومُحرَّكة في أواخرها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/48.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/48.

ومُحرَّكة في أواخِر الأفعال ومُسكَّنة في أواخرها، فالمُحرَّكة في أوائِل الأسماء حرف جرٍّ مَعْناهُ القسم وتختّص بالتّعجُّب وباسِم اللّه تعالى[1]، وورود القَسَم بالتّاءِ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّـهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ فيه زيادةُ معنى التَّعجُّب مِن أبناء يعقوب ﷺ حين أخبرهم بوجود رائحة يوسف الَّذي ذهب منذ زمن بعيد وغُيِّب ذِكْرُه ولا يعلمون خبرًا عنه، فلمّا سمعوا ذلك منه بادروا إلى الحلف مستخدمين هذه التّاء الدّالَّة على شدَّة تعجُّبهم.

غرضُ اجتماع المُؤكِّدات:

لمّا كان مقامُ الأهل والأقارب مقامَ إنكار ما حدَّثهم به يعقوب عيه السَّلام، وكان حديثه مثارَ تعجُّب ردّوا عليه بحشد المؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ إنكارًا وتعجُّبًا معتقدين ضعف عقله.

رسـوخُ الجهلِ يـورِّثُ رسـوخَ الرَّفض

بلاغةُ الاستعارةِ باستعمال حرف الظَّرفيَّة:

التَّعبير بحرفِ الظَّرفيّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ استعارة تبعيَّة في الحرف، للدّلالة على تمكُّنه في الضَّلال تمكُّن الظَّرف من المظروف، فاستُعيرت الظَّرفيَّة من معناها الحقيقيّ وهو الاستقرار إلى معنى التَّمكُّن الكامل في الضَّلال وهو معنى مجازيٌّ، قال الطّاهر ابن عاشور: "والظَّرْفيَّةُ مَجازٌ في قوَّةِ الاتِّصافِ والتَّلَبُّسِ وأنَّهُ كَتَلَبُّسِ المَظْروفِ بِالظَّرْفِ. والمَعْنَى: أنَّك مُسْتَمر على التَّلَبُّسِ بِتَطَلُّبِ شَيْءٍ من غَيْرِ طَريقِهِ. أرادوا طَمَعَهُ في لِقاءِ يوسُفَ ﷺ"[2].

لا يـقـوى على مجابهةِ عِلْم الـعـالِـم إلّا اعتقادُ الجاهلِ

دلالة إضافة الضَّلال لضمير المخاطب:

أضاف أهل يعقوب الضَّلال – وهو الخَرَف وكِبَر السِّنِّ والضّعف

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب: 1/106.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/48.

رُبَّ أباطيل فاسدة تُعامَلُ معاملةَ معارف ثابتة

– إلى ضميره في قوله تعالى: ﴿ضَلَٰلِكَ﴾ وهو من قبيل التَّخصيص، فخصّوه بذلك دونهم حتَّى صار هذا الضَّلال معروفًا به ﷺ، ويرون أنَّه ابتعد عن طريق العقل، وذهب إلى غير جهة الصَّواب، فالإضافة قرُبت من معنى التَّعريفِ؛ أيْ: الضّلال المعروف اللّاصق بك منذ زمن، كأنَّهم يقولون: لا جديد عليك فأنت صاحبُ ضلالٍ معروفٍ!.

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾:

حبٌّ لم تُغيِّره الأيام، ولم يَعفُ عليه الزَّمان

ورد وصفُ الضَّلال في قوله تعالى: ﴿ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ بالقديم، وتعريف القِدَم بأل العهديَّة؛ أيْ: ضلالك المعهود بقِدَمه في كونه لا يفتأ ينسى يوسف ﷺ، بل هو مُكثرٌ لذِكْره حتَّى دخل عليه من المرض وضعف العقل ما دخل، فصار هذا البُعد عن جادَّة الصَّواب أمرًا قديمًا عُهد به يعقوب ﷺ، وقد أفاد التّعريف بـ(أل) المبالغة في وصف هذا الضَّلال بكونه قديمًا قِدَم زمن بُعد يوسف ﷺ.

دلالة الوصف بالقديم:

تعليلُ الموصوفِ ورفض الاستماعِ

جاء وصفُ الضَّلالِ بالقديمِ في قوله تعالى: ﴿لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ باعتبارِ طولِ المدَّةِ، وتراخي زمانِها، فالمقصودُ من استعمالِ هذا الوصف تعليل رفضهم؛ أيْ: إنَّ ما أنت فيه من الضَّلالِ قديمٌ لا جديدٌ، وعليه فلا اعتبارَ له، ولا انتهاضَ لمضمونِه، مع ما فيه من انتفاء اللُّطفِ في الخطابِ، فهم يُعلِّلون رفضَ ما قاله بأنَّه ضلالٌ قديمٌ ليس بجديدٍ، مع رفضِ الاستماع إليه، إذ يوحي الوصف بالملِ من كثرةِ سماع مثل هذا الكلام.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

التَّفنيد والتَّجهيل:

التَّفنيد ضعفُ المعرفةِ بسببِ الهَرَم، أمّا التَّجهيل فأعمُّ من ذلك

التَّفْنِيدُ: نسبة الإنسان إلى الفَنَدِ، وهو ضعف الرّأي. فمعنى ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾: قيل: أن تلوموني، وحقيقته راجع إلى الأصل،

والإفْنادُ: أن يظهر من الإنسان ذلك، والفَنَدُ: شمراخ الجبل، وبه سُمي الرّجل فَنَدًا[1]، والفَنَدُ: الهَرَمُ، وهوَ ذاكَ القياسُ، ولا يَكونُ هَرَمًا إلّا ومَعَهُ إنْكارُ عَقْلٍ. يُقالُ: أفْنَدَ الرَّجُلُ فَهوَ مُفْنِدٌ، إذا أُهْتِرَ. ولا يُقالُ: عَجوزٌ مُفْنِدَةٌ، لِأنَّها لَم تَكُ في شَبيبَتِها ذاتَ رَأْيٍ. ويَقولونَ: الفَنَدُ: الكَذِبُ. ومُمْكِنٌ أنْ يَكونَ سُمّي كَذا لِأنَّ صاحِبَهُ يُفَنَّدُ؛ أيْ: يُلامُ. ومُمْكِنٌ أنْ يُسَمَّى كَذا لِأنَّهُ شَديدُ الإثْمِ شَديدٌ وِزْرُهُ[2]، فالتَّفنيد اتِّهامٌ بضعفِ الرّأي والجهل بسبب الهَرَم.

والتَّجهيل اتهامٌ بالجهل الّذي يقابل العلم أو الخِفَّةُ وخِلافُ الطُّمَأْنينَةِ. ويُقالُ: اسْتَجْهَلَتِ الرّيحُ الغُصْنَ، إذا حَرَّكَتْهُ فاضْطَرَبَ[3]، وقد يكون التَّجهيل عن سببٍ ظاهر أو غير ظاهر، وهو أعمُّ من التَّفنيد؛ لارتباطِ الأخير بالهَرَم.

ومن هنا تبيّن أنّ الأنسب والأليق بالمقام وطبيعة الحال هو ما جاء به التَّعبيرُ القرآنيُّ؛ لأنَّهم ما كانوا يصفون نبيَّ اللّه يعقوب بالجهل عمومًا، فهم يعلمون تمام العلم أنَّه على علم من اللّه تعالى، إنَّما كانوا يُنكرون أمرَ وجود يوسف حيًّا وشمِّ رائحته مِن قِبَل والده يعقوب، ويرون أنَّ ذلك بسبب كِبَر سِنِّه وشغفه بيوسف عليه السلام؛ لذا ناسب ذلك التَّعبير بالتَّفنيد لا بالجهل.

(1) الرّاغب، المُفردات: (فند).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فند).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»